جامعة سيدي محمد بن ع الله موسم 2019-2020

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس الدورة الربيعية

الفلسفةFilière philosophie

الفصل الثانيS2

وحدة الكسمولوجيا القديمةModule : La cosmologie antique

الأستاذ محمد أبركانMohamed Abarkan

الكسمولوجيا القديمة

2019- 2020

بطريقة قد تشبه طريقة سقراط يمكن القول إن الشيء الذي نعرفه هو أننا لا نعرف متى بدأ الإنسان يطرح أسئلة، مهما كان مستواها، حول الكون والعالم الذي وجد فيه. وإذا صح هذا، فسيكون من الصعب تحديد بداية ما للتفكير الكسملوجي، كأن نقول أن السؤال حول الكون وحول العالم قد بدأ مع فلان ينتمي إلى حضارة ما، وقد تم ذلك في زمن ما. نعم صحيح أن بعض الوثائق/ المراجع تتحدث عن أن البابليين والمصريين والصينيين والمنتمين إلى الحضارة الهندية القديمة، قد انشغلوا مثلا بما يحدث في السماء وببعض الظواهر المرتبطة بها الناتجة عن حركات الكواكب. وصحيح كذلك أن السؤال حول الكون وحول تشكله ومكوناته قد كان مطروحا في إطار التفكير الأسطوري؛ كما نجد جوابا عن هذا السؤال في الكتب الدينية. فبالنسبة للأساطير مثلا، نجد أنها انشغلت بشكل مثير بسؤال أصل العالم؛ ومن هذه الأساطير ما يتحدث عن الدنيا قبل الخليقة، بحيث لم هناك من شيء عدا مياه هائلة، عميقة وسوداء؛ وأنتجت هذه المياه القديمة بيضة ذهبية، طفت على وجه الماء مدة تسعة أشهر. بعد تسعة أشهر انفلت البيضة وظهر على قشرتها مخلوق، وقد كانت أول كلمة نطق بها هي كلمة "الدنيا" وبهذا تكونت الأرض؛ والكلمة الثانية التي نطق بها هذا المخلوق الأسطوري هي كلمة "السماء" وبهذا نشأت السماء. إضافة إلى هذه الأسطورة الهندية القديمة، يمكن أيضا أن نستحضر أسطورة بابلية يقول مضمونها إن ماردوك Marduk أعلن نفسه ملكا على الآلهة وفي خضم هذا، واجه أنثى في هيئة وحش (تيمات Tiamat) وهذه الأنثى كانت تجسد قوى اللانظام Le désorde أو العودة إلى اللانظام والفوضى؛ لكن ماردوك استطاع أن يقتل تيمات، وذلك بمساعة الرياح، ورمى جزءا منها في الهواء، وهكذا تم خلق السماء. وفي أسطورة يونانية قديمة أيضا، تقول إنه لم يكن في الوجود أي شيء عدا الفراغ المظلم، يقبع فيه طائر بجناحين سوداوين؛ وبفضل رياح هبت وضع هذا الطائر بيضة ذهبية، ورقد الطائر على هذه البيضة مدة طويلة؛ ثم دبت

الحياة في البيضة، ومنها خرج إله الحب (إيروس) ثم انشطرت البيضة إلى نصفين، نصف ارتفع في الهواء وصنع السماء، ونصف آخر صنع الأرض.

هكذا، تقدم لنا الأساطير القديمة مسألة نشأة الكون، وهذا يجعلنا نستنتج أن الإنسان منذ القديم وهو يتساءل حول هذه النشأة، وذلك بإعمال خياله في البدايات الأولى، حيث يمكن أن نلاحظ على مضمون هذه الأساطير أنه مضمون يغلب عليه الخيال، في غياب أي انشغال بالاستدلال، هذا رغم أن هذه الأساطير تتحدث عن الماء والفراغ والظلام والزمن (تسعة أشهر، مدة طويلة) وانتصار النظام على اللانظام... إلا أن هذا لا يمكن أن يعطينا فكرة واضحة من شأنها أن تبين كيف نشأ الكون أو العالم.

يبقى سؤال الكسمولوجيا من حيث أنه سؤال فلسفي وعلمي، وذلك حسب ما نتوفر عليه من وثائق، ارتبط أساسا ببداية نضج هذا السؤال مع الطبيعيين الأوائل (يمكن مراجعة ما قدمه هؤلاء بخصوص هذا السؤال في كتاب نجيب بلدي: **دروس في تاريخ الفلسفة،)**

لكن رغم هذا فالبداية الحقيقية لهذا العلم كانت مع أفلاطون (427- 347 ق م) الذي استفاد بدوره من الأساطير ومن تفكير الطبيعيين الأوائل، الذين استفادوا بدورهم من تفكير من سبقهم. هكذا وفق جدلية تفاعل اللاحق مع السابق. والكسملوجيا القديمة ستتضح شيئا فشيئا حتى مرحلة أرسطو (384- 322 ق م) كما سنرى. وهذا الأخير لا يمكن فصل تفكيره الكسملوجي عن فلسفته؛ ومعلوم أن فلسفة هذا الأخير تم الاهتمام بها طيلة القرون التي تلت أرسطو، فقد تم شرحها وإعادة تصنيفها، وفي هذا السياق وجهت إليها انتقادات وسجلت بشأنها ملاحظات كثيرة. أي أن الذين جاؤوا بعده لاحظوا أمورا كثيرة على التفكير الكسملوجي والفلسفي لأرسطو. وعليه سوف نهتم فيما سيأتي بسؤالين أساسيين؛ يتعلق الأول بالعالم في التصور الأرسطي، ويتعلق الثاني بقضية فرضها التفكير في هذا العالم من قبل أرسطو نفسه، إنها قضية ما إذا كان العالم تَكَوّن وسوف يَفْسد أم أنه غير خاضع للكون والفساد، أو قل إنه قديم؟

قبل الخوض في هذين السؤالين، لا بد من الإشارة مرة أخرى، إلى أنه من الصعب تناول ما جاء به أرسطو بخصوص العالم وبخصوص ما إذا كان قديما، أي لم يتكون ولن يفسد، دون ربط كل هذا بما جاء به أسلافه؛ ولأن هؤلاء كثر، ولأن أفلاطون هو أستاذه المباشر، فسوف نورد بشكل موجز ما جاء به أفلاطون بخصوص العالم.

إن الفكرة الأساسية في الكسمولوجيا الأفلاطونية تتمحور حول إيجاد العالم أو الكسموس، أو بتعبير آخر إيجاد النظام بعد أن كانت الفوضى أو الكاووس أو اللانظام هو الذي كان. فالعالم عند أفلاطون هو من صنع الآله الذي تدخل بعقل رياضي لإيجاد النظام انطلاقا من اللانظام. وهكذا، فدلالة فلظ الكسموس في اللغة اليونانية قديما Cosmos تعني النظام الجميل؛ وأول من استعملها بهذا المعنى هم الفيثاغوريون (نسبة إلى فيثاغورس: عالم الرياضيات الشهير) وطبعا فالنظام الجميل هنا هو نظام الكون. ومن المعلوم أن الفيثاغوريين رأوا هذا النظام متجسدا في الأعداد والأشكال الهندسية. فالأعداد بينها تناسب وتناغم، وكل شيء في الكون إذا تمعنا فيه وتأملناه وجدنا فيه هذا التناغم وهذا الانسجام.

سيكون لهذه الفكرة ولأفكار أخرى لحكماء آخرين تأثير على تشكيل أو بناء أفلاطون لرؤيته الكسمولوجية. وتعتبر محاورة طيماوسTimée هي المحاورة التي عرض فيها أفلاطون رؤيته هذه. وهناك من الدارسين والباحثين من يعتبر أن طيماوس هي الرحم الحقيقي الذي منه تولدت الكسمولوجيا القديمة والتي ستنضج وتكتمل مع أرسطو.

إن محاورة طيماوس تطرح سؤالا حول تشكل أو ميلاد الكسموس؛ ويقدم أفلاطون طيماوس باعتباره شخصية متخصصة في دراسة طبيعة كل شيء، إنه عالم فلك وعالم رياضيات لم يجد بمثله الزمان Hors pair حتى وقت أفلاطون. ويقدمه هذا الأخير بهذه الصورة حتى يقنع المتلقي بما سيقوله على لسان هذه الشخصية، شخصية طيماوس.

إن البحث في مشكلة أصل الكون يقوم، عند أفلاطون، على مسألتين:

1 -هناك النموذج Le modèle وهو ثابت دائم، غير متكون وغير فاسد، ويظهر للعقل بشكل شفاف وواضح أمام العقل Transparent et claire devant l'esprit ، وبالتالي فلا يمكن التعويل على الحواس في إدراكه.

2 -هناك نسخة النموذج La copie (Image en devenir) أي الصورة المتغيرة والخاضعة للصيرورة، وهذه الأخيرة هي ما يبدو للحواس، لكن حقيقتها لا يمكن إدراكها سوى بالعقل، وهذا يعني اعتبارها نسخة عن الأصل، أي يجب دائما ربطها بالأصل الذي صدرت عنه.

قد نفهم من هذا أن أصل الكون كنظام أو ككسموس هو عقل ونموذج؛ وفي هذا السياق نجد أفلاطون يتحدث عن الآله الصانع L'artisan divin أو Le fabricant de l univers صانع الكون. لكن هذا الصانع لم يصنعه من لا شيء (في الفلسفة اليونانية بصفة عامة، لا يمكن إيجاد شيء من لا شيء. لا شيء من لا شيء Rien de rien) بل إن المادة الأولى موجودة، وقد كانت مهيأة لتلقي النظام من فاعل/ صانع موجود بشكل أزلي خارجا عنها، أي ليس مختلطا بهذه المادة الأولى. وهذه المادة الأولى التي يتحدث عنها أفلاطون هنا هي التي تجسد اللانظام، أي أنه في البداية هناك غياب للنظام، الذي يعني عند أفلاطون غياب التناسب La proportion والقياس La mesure . يقول أفلاطون في طيماوس: "إن الآله ... أخذ كتلة كل الأشياء المحسوسة التي لم تكن ساكنة، بل كانت تتحرك، لكن بلا انسجام ولا نظام، ثم أخذ هذه الكتلة نحو النظام".

بالإضافة إلى حديثة عن المادة الأولى، نجد أفلاطون يتحدث أيضا، متأثرا بالحكماء الأوائل، عن العناصر الأربعة: الماء، النار، الهواء، التراب. فهذه العناصر كانت موجودة، لكن قبل تدخل الآله الصانع كان من المستحيل أن يتشكل منها الكون. إذن فأصل الكون يعود إلى تنظيم هذه العناصر في أشكال وأعداد، وهكذا حصل بينها نظام يتجسد في التناسب. أما الزمن فقد تشكل في نفس الوقت الذي

تشكلت فيها السماء، وذلك لأن الزمن هو حركات الكواكب Le tems est né en même tems que le ciel . لكن رغم هذا، نجد أفلاطون غير متحمس كثيرا لفكرة كيفية تشكل الكون، أكثر من تحمسه لفكرة كيف كانت الأمور قبل وجود/ ميلاد السماء، وكيف كانت طبيعة النار والماء والهواء والتراب؟

في هذا الإطار، يتحدث أفلاطون عن الأصل الرياضي لتشكل عناصر الكون. فالمثلثات هي التي كانت وراء تشكل الأجسام. وعندما نقول المثلثات، فهذا يعني المبادئ الهندسية. لكن كيف انطلاقا من أشكال وأعداد رياضية سيتم كتابة الكون المحسوس؟ جواب أفلاطون هو أن ضمان التتابع العددي والهندسي للكون هو شأن إلهي Garantir la filiation numérique et géométrique de l'univers, c est l'affaire de dieu . ولكي يحصل هذا كان لا بد أن تتوسط بين الصانع وعملية تشكل الكون مادة غير متكونة وغير فاسدة وهي الكورا Khora، هي الوسيط بين المادة الملموسة وبين الصور العقلية (المثل_ الأفكار)

إن عناصر عالم طيماوس تترابط فيما بينها بواسطة التناسب، هكذا فالنار بالنسبة إلى الهواء بمثل الهواء بالنسبة للماء وبمثل الماء بالنسبة للتراب. وانطلاقا من هذه العناصر الأربعة Quatre éléments مرتبة ومتناغمة بهذا الشكل تم صنع الكون المحسوس، ولم يترك الصانع أي شيء خارج هذه العناصر، لأنه لا يوجد شيء خارج هذه العناصر الأربعة.

وبشكل عام يمكن أن نلاحظ هنا أن أفلاطون ظل يتحرك ضمن الدائرة التي رسمتها الأسطورة وأعاد رسمها الحكماء الأوائل انطلاقا من إبعادهم لأي عنصر خارج الطبيعة. لكن الجدير بالذكر هو أن أفلاطون، رغم أن تأثره بالأسطورة بقي قائما، فإننا نجده يعيب على الشعراء (هم الذين كانوا يحكون الأساطير) كونهم يصورون الآلهة على أساس أنها تأتي بأسوأ ما يقوم به البشر. فالآلهة في عالم الأسطورة تغار ويحسد بعضها البعض. ولذلك فقد كانت خطوة أفلاطون خطوة هامة

في اتجاه إضفاء نوع من العقلانية على خطاب تشكل الكون، وذلك انطلاقا من تجريد الآلهة من كل الصفات التي ألصقتها بها الأسطورة (الغيرة والحسد). وبدلا من هذا يتحدث أفلاطون عن الآلهة التي تحسن الصنع بواسطة الأدوات الرياضية. ولذلك فالكون الذي يصفه أفلاطون في طيماوس من الصعب فهمه إلا بالاستعانة بالرياضيات. إنه كون رياضي وبالتالي لا يمكن فهمه إلا بالرياضيات. في هذه النقطة ينفصل أفلاطون عن الأسطورة، بحيث تغدو هذه الأخيرة مجرد آلية حجاجية للإقناع وليس إلا.

وكما أعاب أفلاطون على الأسطورة كونها تقدم الآلهة بصفات تهم البشر، فقد انتقد كذلك الحكماء الأوائل، أو فلاسفة الطبيعة. إذ أن هؤلاء اكتفوا حسب أفلاطون بتفسير نشأة الكون انطلاقا من العناصر الطبيعة، أي أنهم يقدمون لنا تفسيرا ميكانيكيا وماديا للكون، في حين أن الأخير حسب أفلاطون فيه روح، فالكون– العالم كائن حي؛ وروحه تستمد أساسها من الرياضيات. فللكون عقل يحكمه. وروح العالم مشكلة من دوائر هي النظام الجميل الذي تحفظه علاقات متناغمة، وكذلك الشأن بالنسبة للعناصر الأربعة المكونة للجسد (النار والهواء والماء والتراب) فهي عبارة عن مجسمات مربعة ومثلثة.

هذا هو باختصار العالم أو الكون الأفلاطوني، وهو بالرغم من أنه يتكون من عناصر طبيعية، لكن دون العقل الرياضي فلم يكن له أن ينشأ أو يتشكل وفق هذا النظام الجميل الذي يحكمه. ولابد من الاطلاع على محاورة طيماوس لفهم هذا العالم الأفلاطوني بشكل مفصل.

العالم في الكسمولوجيا الأرسطية

يصح أن نقول، إن نضج الكسمولوجيا القديمة لم يتم إلا مع أرسطو، وذلك لأن هذا الأخير هو الذي استكمل البناء الذي بدأه الطبيعيون أو الحكماء الأوائل واستأنفه أستاذه أفلاطون. ثم إن هذا النظام الكسمولوجي الأرسطي هو ناضج لأنه هو الذي سيشتغل في ظله كل الفلاسفة والعلماء الذين جاؤوا بعد أرسطو. فقد شكل هذا النظام، إلى جانب فلك بطلميوس (عاش في القرن الميلادي الثاني) البارادیغم أو الإبدال الذي فرض نفسه على العلماء والفلاسفة حتى مجيء العصر الحديث، أي حتى نشر أو ظهور كتاب كوبرنيك **في دورات الأفلاك السماوية** سنة 1543م.

وإذا كان أفلاطون يقدم لنا في محاورته طيماوس وصفا لنشأة وتشكل الكون معولا على علم الرياضيات، فإن خَلَفَه أرسطو يقدم تفسيرا لبنية الكون، وذلك اعتمادا على فيزياء تحكمها الميتافيزيقا كما سنرى.

ويمكن تناول الكسمولوجيا الأرسطية انطلاقا من عدة جوانب أو موضوعات أو تيمات أو أسئلة. إذ يمكن الحديث عن هذه الكسمولوجيا إنطلاقا من بنية الكون، أي مكونات الكون الأرسطي، كما يمكن الحديث عن هذه الكسمولوجيا انطلاقا من مسألة قدم هذا الكون، أي أن هذا الكون أو هذا العالم هو قديم، وبالتالي فهو لم يُخلق وهو أزلي وخالد، كما يمكن الحديث عن هذا الكون الأرسطي انطلاقا من تناول مسألة الحركة عند المعلم الأول. لكن تجب الإشارة إلى أن هذه الإشكالات متداخلة، أي لا يمكن الفصل بينها. فكسمولوجيا أرسطو يحكمها الانسجام التام بين عناصرها. فالحديث مثلا عن بنية الكون يستدعي الحديث عن قدمه وعن نهائيته ووحدته وامتلائه والحركة التي تخص مكوناته.

وإذا انطلقنا من بنية الكون، فالأجدر بنا الإشارة إلى أن كسمولوجيا أرسطو تقوم أساسا على القول بعالمين، رغم أن وحدة العالم هي فكرة أساسية في هذه

الكسمولوجيا، يتعلق الأمر بعالم ما فوق القمر Le monde supra lunaire وعالم ما تحت القمر Le monde sublunaire أي العالم الذي نعيش فيه نحن الذين نفكر في هذا العالم. وانطلاقا من هذا يتحدث أرسطو عن العناصر المكونة لهذين العالمين. وبما أننا نؤكد على وحدة العالم عند صاحبنا أرسطو، أي على كون العالم واحدا، وهو مقسم إلى قسمين، فإن العناصر المكونة له هي خمسة عناصر. فهناك العناصر الأربعة المعروفة: الماء والهواء والنار والتراب، التي تشكلت انطلاقا من مادة أولى؛ إذ هذه المادة الأولى قبلت تلك الصور الأربعة، أي الماء والهواء والنار والتراب. وهذه العناصر هي العناصر المكونة لقسم أو لجزء ما تحت القمر، الجزء الذي نعيش فيه نحن البشر. ثم هناك العنصر الخامس المُكَوّن للقسم أو لجزء ما فوق القمر، وهو عنصر الأثير L'éther وهذا العنصر هو عبارة عن مادة لطيفة، تختلف كل الاختلاف عن العناصر الأربعة المكونة لعالم ما تحت القمر، أي الماء والهواء والنار والتراب. فالأثير مادة سماوية. أي أن ما فوق القمر هو ما يشكل هذا العنصر الخامس وما تحت القمر هو ما يشكل العناصر الأربعة. هذه العناصر الأربعة اختلطت فيما بينها نتيجة حركة الجرم السماوي، وبهذا الاختلاط تشكلت خواص أربعة أيضا، وهي الحرارة الناتجة عن اختلاط النار بالهواء، والصلابة أو اليبوسة الناتجة عن اختلاط النار والتراب، والبرودة الناتجة عن اختلاط التراب والماء، والرطوبة الناتجة عن اختلاط الهواء والماء. وهذه الاختلاطات حصلت، كما قلنا، بحركة الجرم السماوي، وهذه الحركة هي الضامنة لكل ما يتشكل في عالم ما تحت القمر؛ فالكائنات الحية من حيوانات ونباتات وأيضا المعادن، كل هذا ما كان له أن يحفظ لو لا ما يحدث في ما فوق القمر من حركات، هي التي تؤدي إلى اختلاط العناصر والأمزجة.

وهذه العناصر التي نتحدث عنها هنا هي أجسام طبيعية، والطبيعة عند أرسطو هي مبدأ حركة وسكون، أي أن كل ما هو طبيعي فهو إما يتحرك حسب

طبيعته أو هو ساكن غير متحرك حسب طبيعته. هذا هو أحد معاني أن الطبيعة مبدأ الحركة والسكون. ووفق هذا القول هناك نوعان من الحركة عند أرسطو: الحركة المستديرة أو الدائرية، أي التي تتم بشكل دائري وتتم حول مركز الكون، وهناك حركة استقامة، أو الحركة في اتجاه واحد. والعناصر الأربعة المكونة لعالم ما تحت القمر، أي الماء والهواء والنار والتراب تتحرك حركة استقامة وذلك حسب طبيعتها أو ماهيتها. فالثقيل منها يتحرك دائما نحو الأسفل، والخفيف يتحرك دائما نحو الأعلى. فالتراب طبيعته ثقيلة أو ماهيته ثقيلة، إذن فمن الطبيعي أن يتحرك نحو الأسفل. والماء بما أن طبيعته تلي طبيعة التراب في الثقل فإنه أيضا يتحرك نحو الأسفل لكن بالإضافة إلى الهواء وإلى فوق بالإضافة إلى التراب لأنه أثقل منه. والنار بما أنها خفيفة فهي تتحرك نحو الأعلى، الفوق، هذه هي طبيعتها. والهواء بما أنه يلي النار في الخفة فإنه يتحرك إلى فوق بالإضافة إلى الماء وإلى الأسفل بالإضافة إلى النار لأنها أخف منه.

أما حركة جسم السماء، أي الأثير فهي حركة دائرية ودائمة، وذلك لأن جسم السماء ليس بخفيف ولا بثقيل. وهذه الحركة، أي الدائرية، هي أكمل وأتم أنواع الحركات. وهي تخالف الحركة المستقيمة بكونها مؤلفة من حركة المحدب وحركة المقعر، أما الأجسام البسيطة الأخرى، أي الماء والهواء والنار والتراب فلا محدب لها ولا مقعر.

وكل جسم من هذه الأجسام يطلب موضعه الطبيعي؛ فالأشياء الثقيلة تتحرك من جميع نواحي العالم إلى الوسط، والأشياء الخفيفة تتحرك دائما من الوسط؛ ولذلك فموضع النار الطبيعي هو تحت القمر، لكن بعيدا عن الأرض، أي فوقها بكثير وكذلك الهواء، فهو تحت القمر، لكن بين الأرض وما تحت القمر؛ أما التراب فموضعه أسفل النار والهواء و الماء.

والعالم بمكوناته فهو متناه، أي له نهاية، وهو ممتلئ، أي لا خلاء فيه. إن العالم الأرسطي هو عالم مكتمل ونهائي، فلا شيء وراءه، لا خلاء ولا ملاء، وذلك لأنه إذا قلنا أن وراء هذا العالم خلاء، فهذا معناه وجود العالم في حيز أكبر منه، وهذا الحيز إذا كان فهو خلاء مطلق وهذا عبث بالنسبة لأرسطو. أما إذا اعتبرنا وراء العالم ملاء، فهذا الأخير سيكون جزءا من هذا العالم، أي أنه نفس العالم. هكذا يبرهن أرسطو على أن العالم واحد ونهائي ومكتمل.

هكذا، فبالنسبة لجزء ما فوق القمر، أي السماء، فهي مكونة من كواكب وأفلاك تتحرك فيها هذه الكواكب، وسبب الحركات السماوية هو وجود محرك أول، وهو فوق فلك النجوم الثابتة، وتسمى ثابتة لأن المسافة بينها لا تتغير. هكذا تنتقل الحركة من المحرك الأول إلى فلك النجوم الثابتة، ثم إلى فلك زحل، ثم إلى فلك المشتري، ثم إلى فلك المريخ، ثم إلى فلك الشمس، ثم إلى فلك الزهرة، ثم إلى فلك عطارد، ثم إلى فلك القمر، ثم عندما نصل إلى الأرض تسكن الحركة، أي تنتهي. هكذا فالأرض ثابتة، لا تتحرك وهي في مركز العالم. وأفلاك السماء متراكزة، أي لها نفس المركز الذي يوافق مركز الأرض. ودائما يماس مقعر الفلك الفوقي محدب الفلك الذي تحته مباشرة، بحيث لا يوجد بين الأفلاك فراغ، لأن الطبيعة تخشى الفراغ، إنها لا تقبل الفراغ. فهي ممتلئة، ولا خلاء فيها.

ونلاحظ أنه كلما ابتعدت الحركة عن المحرك الأول في اتجاه الأرض نقصت سرعتها، ولهذا تتوقف الحركة على سطح الأرض. ومن الحجج التي أوردها أرسطو على عدم حركة الأرض، وهي فكرة مركزية في كسمولوجيا أرسطو، نجد الحجة التي تقول أنه حيث تسكن أجزاء الأرض فهناك يجب أن تسكن الأرض بجملتها. وكذلك نجد الحجة التي تنطلق من طبيعة الأرض، فهي تراب وهذا الأخير ثقيل، وبالتالي فالأرض جسم ثقيل، ومن هنا عدم حركتها. وكذلك نجد الحجة التي تقول، بما أن

الأجسام السماوية تدور دائما وأزليا حركة مستديرة، فلا بد لهذه الحركة أن تتم حول وسط/ مركز ما. وهذا الوسط أو المركز لا بد أن يكون ثابتا.

سؤال قدم العالم عند أرسطو

يتبين، من خلال ما يورده أرسطو في بعض من أقواله، أن هذا السؤال يعبر عن إشكال طرحه السابقون عليه؛ مما يعني أنه إشكال تسلمه أرسطو من الحكماء والفلاسفة والعلماء السابقين عليه. فكيف واجه أرسطو هذا الإشكال العويص كما سنرى؟

بما أن هذا السؤال، أي هل العالم مُكَوّن أم قديم غير مُكَوّن؟، هو سؤال تعرض له الذين تفلسفوا قبل أرسطو، فإن هذا الأخير لم يدع الفرصة تمر دون أن يفحص آراء أولئك حول هذا السؤال؛ وذلك لأن المعلم الأول رأى أنه إذا أراد أن يقنعنا برأيه، فإنه لا بد من أن يُعَرّفَنا على آراء سابقيه وحججهم. وهكذا يأتي أرسطو بثلاثة آراء رأى بأنها آراء لا تستقيم، أي غير مقنعة. الرأي الأول هو رأي الحكيم أناكساغوراس، ويقول فيه أن العالم تَكّون وسوف يفسد، أو إنه كائن فاسد. ويعلق فيلسوف قرطبة ابن رشد (توفي سنة 1198م) على هذا الرأي قائلا: «وبه [رأي أناكساغوراس] أتت الشرائع الثلاث المعروفة في وقتنا هذا، وهي شريعة الإسلام وشريعة اليهود والنصارى». أما الرأي الثاني فهو للحكيم أنباذوقليس، وهو رأي يقول إن العالم في تكون وفساد دائمين، أي يتكون حينا ويفسد حينا آخر، هكذا دائما. أما

الرأي الثالث فهو رأي أستاذه أفلاطون، وهو يقول إن العالم تَكَوّن لكنه لن يفسد، إنه كائن لكنه لا يقبل الفساد.

وكما سبق القول، فأرسطو رأى أن هذه الآراء والحجج التي جاء بها أصحابها هي فاسدة. ولأن المقام لا يسمح هنا للوقوف عند هذه الآراء الثلاثة كلها، فإننا سنقف فقط عند رأي أستاذ أرسطو أي أفلاطون، ونرى كيف اعترض عليه تلميذه. يقول أرسطو بعد عرض هذه الآراء: «فنقول، نحن، إذ قد فرغنا من الإخبار عن أقاويلهم، إن قول القائل [يقصد هنا أفلاطون كما سنرى] إن السماء هي العالم، وأنها تكونت [تم إيجادها من قبل صانع] وأنها دائمة، لا فناء لها، هو رأي محال » وسبب استحالة هذا الرأي أو عدم صحته في رأي أرسطو هو أنه يعتبر أن الإقرار والتصديق بأي رأي أو فكرة لا يتم إلا إذا إذا تأكدت لنا ملاحظتها في جميع الأشياء أو في أكثرها. إن أرسطو يحاول هنا أن يعترض على رأي أستاذه أفلاطون استنادا إلى الاستقراء؛ فكل ما نلاحظه يبين أن كل ما يتكون فإنه يفسد، ولا يبقى على حاله دائما، ولم يسبق أن رأينا شيئا تكون ولم يفسد؛ وفي هذا السياق، يعتبر أرسطو أننا لا يمكن أن نقر ونصدق بالصفة إلا إذا رأيناها في جميع الأشياء أو أكثرها؛ ويشرح ابن رشد هذه الحجة قائلا: «يريد [أي أرسطو] وإنما صار هذا القول غير مقنع ولا يُصدق به ضربا من التصديق، يريد أن الاستقراء الذي تُستوفى فيه جميع الجزئيات، يعاند هذا المذهب، وذلك أنا نحس أن كل كائن فهو فاسد». وعليه فرأي أفلاطون محال من هذه الجهة. كذلك يحتج أفلاطون على رأيه باللجوء إلى التمثيل بما يأتي به أصحاب الهندسة؛ فهؤلاء عندما يحاولون شرح تكون الأشكال الهندسية، فإنهم يفعلون ذلك بالقول إن هذا الشكل الهندسي أو ذاك إنما يتركب من هذا الخط ومن ذاك، أي يتركب في الأخير من خطوط؛ ويعتبر أفلاطون بأن العالم يتكون كذلك بهذه الكيفية، لكن ليس

أن زمانا كان ولم يكن العالم. ويريد أفلاطون أن يبين من هذا أنه إذا كانت الخطوط تسبق الشكل، فهذه الأسبقية ليست أسبقية زمانية، لكن أرسطو رأى أن الخطوط التي في الشكل لا يوجد واحد منها قبل الآخر، أي أن ما تكون منه الشكل من خطوط يوضح أن هذه الخطوط هي موجودة بالفعل، أي أنها موجودة مع وجود الشكل، أو أنها سابقة على الشكل بالزمان، وهذا الأمر الأخير لن يؤدي إلى القول بحدوث العالم كما أراد أفلاطون. وهكذا، يشرح ابن رشد هذه الفكرة قائلا: «إن الخطوط ليست تتقدم الشكل بالزمان، إذ كانت ليست توجد خارج الشكل » وعليه رأى أرسطو أن هذا المثال هو مثال لا يستقيم؛ إذ لا معنى للقول إن الخطوط التي يتكون منها الشكل كانت موجودة لا في زمان، أي أنه إذا أقرننا بكون العالم قد تشكل من أجزاء فلزم أن تكون هذه الأجزاء (خطوط) سابقة بالزمان عليه؛ وهذا يعني أن العالم لم يتكون.

هكذا، اعترض أرسطو على رأي أستاذه أفلاطون، وقد فعل هذا في كتابه **السماء والعالم** ، وهذا الكتاب من الكتب التي ناقش فيها أرسطو هذه المسألة، أي مسألة هل العالم قديم أم محدث؟ لكن، يجب أن نؤكد على أننا أوجزنا ما قدمه أرسطو في اعتراضه على رأي أفلاطون، أي أننا لم نقدم كل ما ذكره في هذا الاعتراض، لأن المقام هنا لا يسمح بإيراد كل شيء.

بالإضافة إلى مناقشة أرسطو لهذه المشكلة في كتاب **السماء والعالم**، نجده قد ناقشها أيضا في المقالة الثامنة من **كتاب الطبيعة** أو **الفيزياء**، وذلك من جهة مناقشة الحركة والزمان؛ حيث حاول أرسطو إثبات أنه يستحيل أن توجد بداية للزمان أو للحركة، مادام الزمان والحركة متلازمان؛ فلا زمان بلا حركة ولا حركة بلا زمان وفي زمان. هذا لأن تعريف المعلم الأول للزمان هو أن هذا الأخير هو مقدار حركة الجسم السماوي أو الفلك. مقابل هذا يقول أرسطو بقدم العالم، أي بقدم المادة المكونة له، أي أن هناك مادة أولى تكون

منها العالم، ولم يخلق من عدم، وبالتالي فهو أزلي لا بداية له وخالد. ويطرح أرسطو مسألة قدم العالم انطلاقا من قوله بوجود زمان سابق على إيجاد العالم، لأنه لإيجاد العالم كان لا بد من وجود زمان يوجد فيه العالم. أي أنه عندما نقول قبل وجود العالم وبعده، فنحن نعني بقبل وجود زمان؛ لأن قبل وبعد يدلان على وجود زمان. فمثلا إن كانت الحركة مبتدئة أي لها بداية، فهل الجسم بقي زمانا لا نهاية له غير متحرك ثم تحرك، وإذا كان له محرك قديم ثم حركه، فقد تحول المحرك الذي حركه، وأيهما تحول فقد كانت حركة قبل أن تكون حركة. بمعنى هل المحرك الذي أحدث أول حركة كان ذا فعل بعد أن لم يفعل. وقد عبر عن هذا ابن رشد في كتاب تلخيص ما بعد الطبيعة بالقول: "وقد يظهر وجود حركة أزلية متصلة من جهة الزمان، وذلك أن الزمان لاحق من لواحق الحركة، والزمان ليس يمكن فيه أن يتكون [...] وذلك أنا متى أنزلناه متكونا فقد وُجِد بعد أن كان معدوما قبل أن يوجد، والقبل والبعد إسمان لأجزاء الزمان، فإذن الزمان موجود دائما والحركة دائمة. وأيضا فإن كان الزمان متكونا فسيوجد آن (لحظة) مشار إليه لم يكن قبله زمان ماض، وهو ممتنع أن نتخيل آنا (أي لحظة) مشارا إليه بالفعل وحاضرا لم يتقدمه ماض" (لقد تصرفنا شيئا ما في هذا الاقتباس تسهيلا لقراءة هذا النص: الأستاذ أبركان). هكذا فالزمان، حسب تصور أرسطو يتحدد انطلاقا من "الآن" كواسطة بين ما انقضى وما سيأتي؛ إنها مبدأ للزمان المستقبل وانقضاء للزمان الماضي؛ ولهذا فلا بد أن يكون هناك زمان سابق على "الآن" أو اللحظة التي نتساءل فيها حول البداية؟

إنها إشكالات صعبة ناقشها الفلاسفة بعد أرسطو، واختلفوا فيما بينهم. فهكذا مثلا، نجد الطبيب والفيلسوف جالينوس (القرن الثاني ميلادي) قد اعترف بصعوبة الاستدلال على قدم العالم؛ واعتبر هذه المسألة تبقى ملتبسة. لكن رغم هذا،

فجالينوس مال أو رجح أن العالم قديم، أو إنه لا يفسد وذلك بدليل أن الشمس مثلا منذ القديم وعلماء الفلك يتحدثون عنها كما هي، أي لا يطالها التبدل أو التغير، لا زيادة فيها و لا نقصان، أو قل إنها لا تذبل؛ وكذلك الماء كان دائما موجودا في البحار والمحيطات. وهكذا فكل أشياء العالم موجودة على حالها؛ وهذا ما يخبرنا عنه العلماء الذين درسوا مكونات العالم.

وفي القرون الموالية، اعترض الفيلسوف الاسكندراني يحيى النحوي أو جون فيلوبونوس (توفي حوالي. 590م) على أدلة أرسطو ومن تبعه من الفلاسفة بخصوص القول بقدم العالم. إنه اعترض على أدلة أرسطو مستعينا بها في الكثير من الأحيان؛ إنه استعمل نفس اللغة ونفس المعجم الأرسطي للاعتراض على فكرة قدم العالم. من هذه الأدلة التي اعترض عليها يحيى النحوي على فكرة قدم العالم، نجد دليل التركيب، أي التركيب من مادة وصورة، وهما مفهومان أرسطيان. يقول يحيى النحوي: «تكمن ماهية المادة في وجودها الملائم لاستقبال أو تلقي كل الصور، فهي لا تملك القوة بلا جدوى؛ والمادة الواحدة لا تقبل صورا عديدة في نفس الآن، ولا يمكن للمادة أن تبقى لها صورة بشكل أزلي أو دائم. وبالتالي، فلاشيء مركب من مادة وصورة سوف يبقى، باعتبار مادته، غير فاسد » معنى هذا أن العالم، ما دام أنه مركب أصلا من مواد وصور، والمادة لا يمكن أن تنفك من الصور، لأنها مستعدة دائما لتقي الصور، والمادة لا يمكن أن تظل غير فاسدة، ومعها تفسد صورها. فالسماء مثلا مركبة، وكل ما هو مركب يحمل في ذاته أسباب فساده. هناك دليل آخر اعترض به يحيى النحوي على فكرة قدم العالم، وهو دليل يسمى باستحالة قطع ما لا نهاية له؛ هكذا، حيث يعتبر النحوي أن العالم من غير الممكن أن لا يكون غير محدث أو بلا بداية، لأنه في هذه الحالة سوف يكون اللامتناهي قابلا لأن يقطع، وسوف يوجد بالفعل، واللامتناهي سوف يكون اضطرارا يكبر دائما، ولن يتوقف أبدا عن أن يكون أكبر من نفسه. ويرتبط بهذا الدليل الأخير دليل استحالة

التسلسل إلى ما لا نهاية. ولتوضيح هذا الدليل أورد يحيى النحوي المثال التالي: لو كان الزمان أزليا كما ادعى أرسطو لكان لسقراط عدد لا متناهي من الأجداد؛ فكلما توقفنا عند جد أول ازداد عدد أجداد سقراط إلى ما لانهاية؛ وهذا يستحيل في نظر يحيى النحوي. كذلك، نجد يحيى النحوي قد اعتبر أن أرسطو ما دام قال إن كل جسم فهو متناهي وكذلك قوته متناهية، فيلزم أن يعتبر أن العالم متناه ما دام أنه جسم، وكل جسم فقوته متناهية، وبالتالي فالعالم جسم متناه وقوته متناهية؛ وكل ما هو متناه لزم أن يكون محدثا أو له بداية في الزمان. هذا، إضافة إلى اعتراضه على كون الجرم الخامس، أو جسم السماء لا يشترك مع الأجسام الأربعة الأخرى في شيء، أي كونه جسما مختلفا عن النار والهواء والماء والتراب كما ذهب إلى ذلك أرسطو في كتاب **السماء**. ولقد رد الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابي (توفي حوالي 950م) على حجج يحيى النحوي التي سعى من خلالها إلى دحض فكرة قدم العالم، وجاء رد الفارابي في كتاب مفقود له بعنوان **الموجودات المتغيرة**. إنه كتاب مفقود، ولدينا فقط بعض الاقتباسات التي اقتبسها منه ابن رشد وابن باجة وابن ميمون فيما بعد. والفكرة الأساسية في رد الفارابي على حجج يحيى النحوي تكمن في أن هذا الأخير أساء فهم أرسطو فيما يخص علم الطبيعة؛ بحيث يرى الفارابي أنه من الأفضل عدم الخلط بين مسألة نشأة الكون أو حدوث العالم وبين مسألة أصل الحركة والزمان؛ إذ من الصعب مثلا البرهنة على أن للحركة بداية في الزمان. ويرى الفارابي أن العالم، في كليته ليس موضوع كون وفساد؛ لكن بما أن العالم ليس جسما متجانسا، بل هو مكون من أجزاء، فإنه يجب أن نفهم كون هذه الأجزاء هي جواهر يختلف بعضها عن بعض، خصوصا جسم السماء، فهو ليس جسما كالأجسام الأربعة الأخرى.

إنه إشكال استمر في تاريخ الفلسفة القديمة، بل نجد أن العلماء والفلاسفة المحدثين والمعاصرين يحاولون مناقشته. وهو إشكال أثار كذلك الكثير من المشاكل البعيدة عن ميدان الفلسفة، فمثلا الغزالي (توفي حوالي. 1111م) كفر الفلاسفة في

هذه المسألة، وذلك انطلاقا من خلفية عقدية دينية، وإن كان أبو حامد قد استند إلى أدلة الفلاسفة أنفسهم؛ لكن النتيجة التي انتهى إليها لا علاقة لها بالفلسفة. هذا في حين نجد يحيى النحوي، وإن كانت الخلفية الدينية قد حضرت عنده أيضا باعتباره مسيحيا ورجل دين، لكنه لم يكفر أحدا، بل ناقش أرسطو والفلاسفة الذين تبعوه بهدوء تام. وعموما، فالمدافعون عن حدوث العالم، يستندون إلى فكرة مفادها أنه لو كان العالم قديما لما احتاج إلى فاعل، وبما أن التالي باطل فالمقدم هو باطل كذلك (قاعدة الرفع أو نفي التالي في المنطق).

هذه هي خلاصات الكسمولوجيا الأرسطية، لكن لا يجب الاعتقاد أننا قلنا هنا كل شيء عن هذه الكسمولوجيا. فهناك إشكالات كثيرة تطرحها هذه الكسمولوجيا في علاقتها بما بعد الطبيعة عند أرسطو، لأن علم هذا الأخير لا يمكن فصله عن الميتافيزيقا كعلم كلي.

المراجع المعتمدة في إعداد هذا الملخص القابل للإغناء والمراجعة والتجويد والتعديل:

1- Platon, *Timée*, Critias, Présentation et traduction par Luc Brisson, GF Flammarionn Paris, 1992.

2- Aristote, *Traité du ciel*, traduction par Cathrine Dalimier et Pierre Pellegrin, GF Flammarion, 2004.

3- Pauline Koetschet, Galien, al-Razi, et l'éternité du monde. Les fragments du traité sur la démonstration, IV, dans les doutes sur Galien, in *Arabic sciences and Philosophy*, september 2015, p. (167- 198).

4- Notions de Philosophie, 1, sous la direction de Denis Kambouchner, Folio essais, 1995.

5 -ابن رشد، **شرح السماء والعالم للحكيم أرسطو طاليس** (في جزأين) تحقيق أسعد جمعة، مركز النشر الجامعي، 2002.

6 -ابن رشد، **تلخيص ما بعد الطبيعة** ، حققه وقدم له عثمان أمين، قسم التراث العربي، القاهرة، 1958.

7 -ابن رشد، **في جوهر الأجرام السماوية** ، نقله إلى العربية، عماد نبيل، دار الفارابي، ط 1، 2011.

8 -الغزالي، **تهافت الفلاسفة**، تحقيق موريس بويج، دار المشرق، ط 4، 1990.

9 -موسى بن ميمون، **دلالة الحائرين** ، عارضه بأصوله العربية وترجم النصوص التي أوردها المؤلف بنصها العبري إلى العربية وقدم له حسين أتاي، منشورات الجمل، 2011.

10 - علي حسين عبد الله،" كيف نشأ الكون" ضمن **العربي العلمي** ، العدد 24، 2013، ص (48- 53).

11 - بناصر، البعزاتي، "في وثاقة الكسمولوجيا الرشدية" ضمن **العلم والفكر العلمي بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط** ، تنسق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 94، ص (73- 114).

12 - سعيد البوسكلاوي، "دليل الأعراض بين يحيى النحوي والمتكلمين" ضمن **آليات الاستدلال في الفكر الإسلامي الوسيط** ، تنسيق سعيد البوسكلاوي وتوفيق فائزي، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة، 2013، ص (179- 228).

13 –محسن، مهدي، "الفارابي ضد يحيى النحوي، ترجمة سعيد البسكلاوي، ضمن **الفكر العربي المعاصر**، العدد 164–165، صيف، 2014.

14 – محمد أبركان، "ابن رشد في مواجهة مشكلة التناهي واللاتناهي، قراءة في كتاب محمد مساعد، العالم بين التناهي واللاتناهي لدى ابن رشد، ضمن مجلة **كتابات معاصرة**، العدد 94، 2015، ص (66– 70).